المحاضرة الثامنة علم الاجتماع السياسي

تابع النظريات المفسرة لنشأة وتطور الدولة

النظريات ذات الطابع العلمي

نعنى بالنظريات العلمية أو ذات الطابع العلمي، أنها نظريات صحيحة أو مسلماً بها. ولكننا نعطيها هذا الاسم نظراً لأنها تتخذ المنهج العلمي أساسا في طريقة البحث . فعلميتها ترجع الى استخدامها العقل والمنطق في دراسة وقائع الحياة وربما يقع العقل في أخطاء عندما يتناول الوقائع والأحداث ، بالدراسة والتحليل والتفسير .

وقصدنا هنا أن نتتبع تلك النظريات التي بحثت موضوع نشأة الدولة والسلطة على أسس من البحث مستخدمة المنهاج العلمي . والنظريات ذات الطابع العلمي كثيرة ومتعددة ، لن نتعرض لها جميعاً وإنما سوف نتعرض لبعضها .

أ- نظرية القوة

لم تستحوذ مسألة القوة أو قضية على الدراسات الخاصة بالمجتمع مثل مسألة " القوة " إذ أن موضوع القوة Power والسلطة Authority كانتا محل جدل كبير بين الكتاب وخاصة في الفكر السياسي الحديث .

والنظم السياسية ، وعلى وجه الخصوص منذ أن بدأ العلماء ينظرون Political Powerوقد التفت العلماء إلى دراسة القوة السياسية - والعمليات الاقتصادية – على أنها مختلفة عن موقف البناء الاجتماعي ، لتبرير الدراسة Political Processesإلى العمليات السياسية المنفصلة الخاصة لكل علم من العلوم الاجتماعية .

ولكن ما هي القوة ؟ وفى محاولة لإجابتنا على هذا السؤال نلاحظ أن هذا المفهوم استخدم وعولج بطرق مختلفة عند العلماء ، ولكن أبرز تعاريفها : هي مقدرة شخص أو أشخاص على فرض إراداتهم على الآخرين ، وهى موضوع نادر أو هي مادة حية لدرجة أن البعض يحسب لها مجموعاً كليا وأي زيادة في القوة لإحدى الجماعات ، إنما يعنى فقدانها بالنسبة لمجموعة أخرى .

ب - نظرية التطور العائلي

تتخذ هذه النظرية من نشأة الأسرة – وهى الخلية الاجتماعية الأولى – أساساً لنشأة الدولة . فقد بدأت الأسرة أو العائلة على أساس الانتماء إلى الأم ، وتطورت بعد ذلك إلى مرحلة أخرى وهى التي صار انتماء الأسرة فيها إلى الأب . والأسرة أو العائلة تتكون عادة من الأب والأم والأولاد سواء قل عددهم أو كثر . ثم تطور الحال بعد ذلك إلى تكون عدة أسر ومن هذا إلى القبيلة المكونة من عدة عائلات حتى وصل التطور إلى التنظيم الحديث الذى يضم عدة عائلات في شكل أو صورة أمة تكون الدولة .

وأصحاب هذه النظرية يعتبرون سيادة الوالد على أسرته وأبنائه هي اللبنة الأولى التي انبثقت عنها السلطة السياسية وهذا ما نطلق عليه في التراث القديم وخاصة عند أرسطو فى كتابه " السياسية " إن العائلة تنشأ أولاً ثم تتحد مع عدة عائلات بقصد إشباع وتوفير الحاجات التي لا يمكن للعائلة ان تنهض بها منفردة ومن ثم تتكون القرية ، ومن اتحاد عدد من القرى تتكون الدولة . ومنذ عهد أرسطو وجدت هذه النظرية عدداً من المؤيدين عبر مختلف العصور يرجعون نشأة سلطة الأب على الأسرة .

إن هذه النظرية قد واجهت الكثير من النقد على أساس أنها تبدأ بداية غير صحيحة استناداً إلى أن الأسرة – لم تكن هي بداية الحياة الإنسانية وإنما مرت هذه الحياة بأطوار مختلفة قد لا تكون الأسرة هي الخلية الأولى فيها . ولكن بالرغم من الاحتجاج بهذه الحجة إلا أنه من المؤكد أن الأسرة تمثل أحد حلقات تطور الحياة الإنسانية والاجتماعية ، وإن اختلفت سلطة الأب على العائلة عن السلطة السياسية في الدولة .

جـ - النظرية الماركسية والدولة

يعطى ماركس أهمية كبرى للمجتمع ، ويعتقد أن المجتمع هو الذى يشكل الدولة ويقرر أو يحدد طبيعتها ولكن هل تتقابل نظرية الاشتراكية الماركسية Marxian Socialism على النحو الذى طورت به في ألمانيا خلال القرن الثامن عشر ، والذى زيدت به ومثلت بعد ذلك في روسيا في النصف الأول من القرن العشرين مع ما يوحى به هذا المصطلح ؟

وعلى الأخص فى مفهوم المجتمع البرجوازي Philosophy of rightلقد انطلق ماركس من نظرية هيجل عن " فلسفة الحق بدور أضاف إلى البناء الذى أقامه ماركس ونظم المجتمع البرجوازي طبقا لنظرية هيجل – Lenin ، كما أن Bourgeois Society وكأنه Community of economic interestsوالذى يمكن أن نسميه رابطة العلاقات الاقتصادية ، أو مجتمع المصالح الاقتصادية

الأصلية والطبيعية بقصد توفير Kin – Group حول جماعة القرابة Dialectic of historyشيئاً قد وقع اتفاقاً مع مسار جدل التاريخ سبلا أكثر وفرة للعيش مما كانت القرابة قادرة على توفيره .

وتحقيق ذلك عن طريق نظام الملكية الخاصة وتجميع رأس المال Capital - ولكون وسائل توفير العيش متعددة فإن المجتمع البرجوازي أصبح تبعاً لذلك نسقاً متنوعاً لطبقات مختلفة أو نظم ، وقسمها ثلاثة أقسام هي طبقات النبلاء ورجال الدين والعامة في بريطانيا " Estates" ، ويفرق " هيجل " بيم ثلاثة من هذه الطبقات Classes : طبقة المشتغلين بالتعامل في المنتجات المباشرة للطبقة و طبقة المشتغلين في تصنيع هذه المنتجات والمشتغلين في العمليات العامة للتوزيع ، و طبقة المهتمين بحماية المصالح العامة للمجتمع ككل .

ومن خلال تتبع هيجل لتطور هذا النسق الطبقي ، ذكر أن النسق ذاته في عملية تطوره إلى ما يمكن أن نسميه أول أو أدنى أشكال " الدولة " يتم له ذلك عن طريق تطوير مجموعة من القوانين . وتمثل هذه القوانين ، القواعد الحقيقة فقط للإجراءات الفعلية للمجتمع : وهى تتبع الخطوط التي يتخذها المسار الطبيعي للتطور الاجتماعي ، والذى قد يكون طبيعياً وليس بالضرورة عادلاً ، فهي تقوى وتجيز ، النسق القائم للنظام ، بأكثر مما ترتفع به أو تضبطه . ولكن يقوى نسق الطبقات أو النظم من نفسه – وهو لا يزال يحيل نفسه إلى شكل من أشكال الدولة – فإنه ، فضلاً عن مجموعة القوانين هذه ، يطور بوليساً منظماً يضفى به على النظام القائم شرعية وصلابة أكثر " فالقوانين والبوليس – هي أسس وعمد المجتمع البرجوازي ".

وقد بدأ النقد الماركسي تحذيره المبكر من الأخذ بنظرية " هيجل " السياسية في مقالة له لم تظهر مطبوعة إلا بعد موته بعنوان Mriuh der Heyelchen وبالرغم من النقد الصارم الذى وجهه " ماركس " لنظرية " هيجل " السياسية ، فإن نظرية ماركس في الأصل مستمدة من نظرية " هيجل " ، فإذا ما حذفنا أو نحينا جانباً نظرية " هيجل " عن الدولة الحقة ، فإنه يتبقى لدينا العناصر الأساسية أو الجوهرية الماركسية ، التي وضح " لينين " طبيعية بناءها الذى يمكن تركيبه – في كتابه " الدولة والثورة " – والذى يمكن إبراز أهم النقاط التي يحتويها فيما يأتي :

(أ) إن المجتمع بالمعنى الاقتصادي له ، يسوقه تصادم مصالحه المتعارضة إلى تكوين دولة ، " وتبدو هذه الدولة فوق المجتمع " ، وهى تجعل قوة الصدام معتدلة وتبقيها في نطاق شكل من أشكال القانون والنظام ، ويربط المجتمع هذه الدولة بقوات عسكرية محترفة تحل محل التنظيم المسلح للشعب .

(ب) غير أنه طالما أن هذه الدولة نتاج للصدام ، فإنها بالفعل وكأمر واقع ، لا تزيد – ولا تقل – عن كونها أقوى المصالح المتصادمة ، أي مصلحة الطبقة المشتغلة بإدارة رأس المال المتجمع ، وهكذا بدلاً من أن تضع دولة من هذا الطراز نفسها فوق المجتمع فإنها تنغمس في تسيير المجتمع بحيث تسيطر عليها المصلحة السائدة فيه (لكونها بالفعل السيطرة المنظمة لأقوى طبقة ، وهى الرأسماليين) ، بقصد استغلال الطبقة المظلومة

Oppressed Class

(ج) تبقى الجمهورية الديمقراطية نفسها (بنظام التصويت العام فيها Universal Suffrage) وسيلة لسيطرة رأس المال . وهى ولا شك أحسن شكل سياسي ممكن للرأسمالية ، إذ أنها تمكن القوة الفائقة لرأس المال من تأكيد ذاتها بطريق غير مباشر – إلا أنه أكثر فعالية عن طريق تأثير سوق الأوراق المالية Stock Exchange على سياسة الحكومة .

تميل بشكل Executives " "(د) ومن ناحية أخرى فإن عملية التطور الاقتصادي ، وهى توسع مدى عملياتها ، وتزيد من عدد تنفيذيها متزايد إلى رفع البروليتاريا – ونعنى بها العمال اليدويين في الصناعات الحضرية – إلى موقع الطبقة الأقوى ، التي يربطها وشائج القربى والتي تنتظم متماسكة في اتحاداتها . وهكذا فبرغم " أن الجمهورية الديمقراطية هي أحسن الأشكال السياسية الممكنة للرأسمالية " في الوقت نفسه أحسن أشكال الدولة بالنسبة للبروليتاريا في ظل الرأسمالية ، طالما أن هذه الدولة تعطى أعضاء Capitalism " طبقة البروليتاريا أفضل فرصة لتنظيم أنفسهم من أجل الأهداف السياسية .

(هـ) وعندما تصبح البروليتاريا الحضرية المنظمة على هذا النحو ، " الطبقة الأقوى " وتعي قوتها هذه ، فإنها ستستولى على الدولة من الرأسمالية بالثورة واستخدام القوة ، كما فعلت الرأسمالية في أيامها عندما استولت على الدولة من مصالح وطبقات المجتمع الأخرى بنفس المنهاج والوسيلة . فالأمر كله أمر صدام. فالصدام المتطاحن هو عملية التاريخ ونتائجه حتمية وصحيحة .

ومن ثم فإن " لينين " قام بتحليل العملية التاريخية وتفسير الماضي. بيد أن التاريخ لا يتوقف، وينساب الماضي إلى الحاضر والمستقبل. و " لينين " لا يرى أن الدولة – أى دولة البروليتاريا – ستدوم ، فالبروليتاريا سوف تبقى على الدلة إلى وقت محدد فقط . فهي سوف تبقى على الدولة من أجل هدفين ضروريين انتقاليين في نفس الوقت هما :

الأول – قهر الطبقة الرأسمالية .

الثاني – قيادة أشباه البروليتاريا (من الفلاحين والطبقات الدنيا من الطبقات الوسطى) عبر طريق إعادة البناء .

وإذا ما تحقق هذان الهادفان ، فإن الدولة – بما في ذلك دولة البروليتاريا ، التي ستكون عندئذ ، قد أنجزت عملها وأدت مهمتها – سوف تضمحل أو تتلاشى ولن تكون هناك طبقات في العصر الجديد ، وطالما أن الدولة بطبيعتها كيان قائم على طبقة (سواء كانت هذه أم تلك) ، فلن تكون هناك دولة . ولن يكون هناك إلا المجتمع ، أو الجماعة الشيوعية أي مجتمع شيوعي Communist Society خلو من الطبقات Classless Society أو متحرر من أي ظل " للقوة " أو العنف ، حيث يكون الجميع فيه معتادين على مراعاة الشروط الأولية للوجود الاجتماعي Elementary Conditions of Social Existence دون عنف ودون خضوع وهكذا تكون دولة البروليتاريا ، أي الدولة الاشتراكية مجرد مرحلة .

وعلى هذا فإن اكتمال التاريخ على أفق المستقبل – من وجهة نظر الماركسية – هو اضمحلال الدولة ، حتى في شكلها الاشتراكي ، ثم ظهور مجتمع لا طبقي لا يزعجه الصدام أو الصراع ، وإنما يشد أواصره الانسجام التلقائي لشيوعية طبيعية وغير مفروضة . فنهاية الاشتراكية على هذا هي إنهاء الاشتراكية (إذ تفترض سلفا وجود الدولة) . وإقامة حكم دائم مكانها (وإن كان ذلك بنفس وسائلها من المجتمع النقي في . ظل أسلوب الشيوعية .

أسئلة المحاضرة الثامنة

السؤال الأول :

(لم تستحوذ مسألة على الدراسات الخاصة بالمجتمع مثل مسألة " القوة " إذ أن موضوعها كان محل جدل كبير بين الكتاب وخاصة في الفكر السياسي الحديث .)

تحدثي / تحدث بالتفصيل عن نظرية القوة

السؤال الثاني

اذكر / اذكرى العناصر الأساسية والجوهرية

للنظرية الماركسية